أهمية
دراسة التوحيد

أ . د / محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني

الأستاذ بقسم العقيدة
في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الجهني ، محمد عبد الرحمن
أهمية دراسة التوحيد . / محمد عبد الرحمن الجهني
. – المدينة المنورة ، ١٤٣١هـ
١١٠ ص ، ١٢ × ١٧سم
ردمك : ٨ - ٤٤٢٣ – ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١- التوحيد أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٤٣١/١٥٢٩

رقم الإيداع : ١٤٣١/١٥٢٩
ردمك : ٨- ٤٤٢٣ - ٠٠- ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣١هـ



المقدمة

الحمد لله وحده لا شريك له ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وعلى آله وصحبه ، أما بعد :

فإنه في خضم الدعوات المتلاحقات لتناول مناهج التعليم في بلادنا بالتعديل والتطوير والتحسين ونحو هذه المفردات المجملة التي يُراد بها حق وقد يُراد بها باطل يتخفَّى طالبوه تحت دثار إجمالها ، سمعنا بمن يطلب أن تجتمع مواد التعليم الشرعي تحت مسمى واحدٍ هو : ((الثقافة الإسلامية)) يضم أقسام العلم الشرعي في منهج واحد يأخذ من كل قسم شيئاً فلا تتميز عقيدة بدراسة مختصة بها ، ولا أحكام بدراسة مختصة بها ، بل يجمع الدلالة عليها منهج عام يعطى – في دعوى أصحاب هذا الطلب – صورة موحدة متكاملة للثقافة الشرعية التي تتطلبها قيم المجتمع ومبادئُه وولاءاته الثقافية – زعموا – .

ولما قد يجور به هذا الرأي على الثوابت الأسس للديانة من تهميش وتمييع ينال من ركنيتها ويضعف قوتها ، ويلفت عنها النظر الواجب إلى منزلتها ، ويجرح هيبتها ، ويؤسس للجراءة عليها والتخفف شيئاً فشيئاً من سلطانها ، والتمهيد لتناسخ العلم بها ، حتى يعود الناس إلى جاهلية جهلاء كالتي بُعث الرسل إليها ، ولم تكن مهمة الرسل حين بُعثوا إليها إلا رد الناس إلى تلك الثوابت واستئناف تأسيسهم عليها .

لمثل هذه المخاوف الشرعية ، ولما جرت عليه طريقة الشرع من حماية حمى الثوابت بسد الذرائع إلى الباطل عنها ، أكتب هذه الدراسة في بيان أهمية دراسة التوحيد ، فإن في طلب رفع اسم ((التوحيد)) عن منهج يخصه في مواد التعليم الشرعي حصول ما ذُكر من المخاوف ، إذ التوحيد شعار الملة ، وهو جماع أمرها ، وهو مقصدها وغايتها ، فإن اختفى اسمه واقتصر فيه على رؤوس أقلام ومفردات عامة فماذا بقي من الملة ؟ !!

أي صورة هشة مهزوزة مختلطة المعالم لا تبدي حقيقة ولا توضح موضوعاً تلك التي يعرض فيها التوحيد في منهج عام مجمل يسمى الثقافة الإسلامية ؟!! كيف يكون التوحيد حين يتناوله المنهج على هذا النحو ثابتاً أساساً ؟!! وكيف يكون شعاراً ومقصداً ؟!! أي خصوصية لهذه الثقافة في مثل هذا العرض ؟!! وأي منهج للأمة وأفرادها فيه ؟!!

وقد كتبت هذه الدراسة ملتفتاً إلى هذا المقصد المذكور ، وهو التذكير بأهمية دراسة التوحيد ، وأن يبقى لهذا الاسم خصوصيته العليا التي لا تدافع بنزوة ، ولا تُداحض بأي شبهة ، لينتبه كل من جرّته نزوة أو شبهة إلى منزلة التوحيد التي بها جماع حياة الفرد والجماعة والخلق ، وعليها مدار السعادة في الدارين ، وليعلم أن التوحيد معقد الاستقامة ، وأنه الثابت الأساس لأمن الحياة الإنسانية وتغيراتها ، هو صمام أمانها ، ونواة نموها، وحدود غايتها ، فلا يصلح شأن التعليم قط إلا

والتوحيد اسم بارز على أول وأهم مناهجه ، يتغذى به طلاب العلم ، ويؤسسون على مبادئه وترعاه فيهم مراحل التعليم المتتابعة تمام الرعاية .

وقد رتبت الكلام في بيان أهمية دراسة التوحيد على الخطة التالية :

التمهيد : وفيه عرض لمفهوم التوحيد .

المبحث الأول : ((أهمية التوحيد في ذاته))

وفيه مطالب : المطلب الأول : ((كونه حق الله تعالى))

المطلب الثاني : ((كونه على خلق الخلق))

المطلب الثالث : ((كونه قضية الوجود))

المبحث الثاني : ((ضرورة الخلق إلى التوحيد))

وفيه مطلبان : المطلب الأول : ((فطرية التأله))

المطلب الثاني : ((ضرورة الخلق إلى التأله لله وحده))

المبحث الثالث : ((شدة حاجة المسلمين اليوم لدراسة التوحيد))

وفيه مطالب : المطلب الأول : ((الجهل الواقع بالتوحيد علماً وسلوكاً))

المطلب الثاني : ((المشكلات العامة الحالة بالمسلمين))

المطلب الثالث : ((حاجة العصر إلى التزام المسلمين بالتوحيد الحق علماً وسلوكاً))

وإنما رتبته على هذه الفصول لأنها فيما بدا لي أهم وجوه أهمية دراسة التوحيد ، فإنك إذا نظرت إلى عناوين المباحث والمطالب ظهر ذلك لك . فكيف لا تكون لماله في ذاته التي تفصلها المطالب المذكورة تحت المبحث الأول أهمية عظمى لدراسته؟!!

وكيف لا تكون لما للخلق ضرورة إليه أهمية عظمى لدراسته ؟!!

وكيف لا تكون – مع الانحراف الواقع في التوحيد الذي له الأهمية المذكورة وهو ضرورة الخلق وحاجتهم – لدراسة التوحيد أهمية عظمى ؟!!

وكيف لا تكون لما حاجة العصر إليه غاية الحاجة أهمية عظمى لدراسته ؟!!

والله المستعان والموفق لحصول المقصود ، وما كان من صواب فمن الله وحده وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان .

وقد استحسنت نشر هذا المحرر والأمر كما قال ابن يزيد :

في كل مستحسن عيب بلا ريب
لا يسلم الذهب الإبريز من عيب

وقد نشرته { مجلة البحوث الإسلامية } الصادرة عن الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء التابعة للرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء في المملكة العربية السعودية في عددها رقم [٨٧] لشهري ربيع وشهري جمادى ١٤٣٠هـ ، في الصفحات من (٩٧) إلى (١٦٢) ، وهذا نشر ثان له في هذه المطبوعة لتكون فائدته أعم تداولاً .

والله هو المقصود وحده وله الحمد أولاً وآخراً لا شريك له

كتبه
أ.د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني
أستاذ العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

تـمـهـيـد
مفهوم التوحيد

التوحيد هو إفراد الله بالعبادة ، فهو عمل العبد ، يفرد الله بطاعاته لا يشرك معه غيره ولا يتوجه قصده بها أو بشيء منها إلى غير الله .

هذا هو معنى التوحيد ، وهذا المعنى هو المعبر عنه عند أهل العلم بـ ((توحيد الألوهية)) فلفظ التوحيد إذا أطلق من غير إضافة إنما يراد به هذا المعنى الذي هو توحيد الألوهية ، وهذا المعنى إذا تحقق من العبد دل على علمه واعتقاده أن الله منفرد ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً لا سمي له ولا كفؤ ولا شريك شاركه ربوبيته أو ظاهره فيها . وإنما كان التوحيد دالاً على اعتقاد الموحد انفراد الله بربوبيته وكمال صفاته لاستقرار العلم فطرة وعقلاً أنه لا يستحق العبادة إلا الرب – الخالق المالك المدبر – الكامل في صفاته ، فالمعبود إنما يُعبد لأمرين :

١- لكونه خالق العابدين ومالكهم ومدبر أمرهم . قال الله : ((وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ)) [1] فلا يكون إله إلا وقد خلق خلقاً يعبدوه فيستقل بهم .

٢- لذاته ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان كاملاً لا نقص في صفاته ولا عيب ، قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: (((يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا))[2] فبين أن العادم لصفات الكمال ناقص لا يمكن أن يكون معبوداً وبين أن العلم بذلك فطري [3].

فإذا توجه العابد بعبادته لواحدٍ أفرده بقصده وعمله لم يتوجه إلى غيره فقد اعتقده واحداً منفرداً في خلقه وملكه وتدبيره ومنفرداً في كماله ذاتاً وصفاتٍ . ولذلك كان

---

(١) المؤمنون ٩١ .

(٢) مريم ٤٢ .

(٣) انظر درء تعارض العقل والنقل ١٠ / ١٥٥ .

الشرك بالله بقصد غيره معه في العبادة تنقصاً لحظ ربوبيته سبحانه وهضماً لعظمة صفاته عز وجل ، ولذلك جعل الله الشرك سوء ظنٍّ به سبحانه إذ قال : ((وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ)) (١) وسوء ظن المشرك هو ما دل عليه شركه مع الله غيره في العبادة من نسبة حظ من الربوبية وكمال الصفات إلى هذا الغير (٢) ، وسوء الظن هذا هو الذي لأجله أخبر الله في ثلاثة مواضع من كتابه عن المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره (٣) .

فالتوحيد إذاً إذا أطلق فلا معنى له إلا توحيد الألوهية ، وإذا قلنا ((توحيد الألوهية)) فهو معنى التوحيد ، وتقرر هذا المفهوم ثلاثة أدلة يأخذ بعضها بحجز بعض :

---

(١) الفتح ٦ .

(٢) انظر وجوه سوء الظن بالله في زاد المعاد ٣ / ٢٨٨ – ٢٣٥ ، وانظر إغاثة اللهفان ١ / ٦٠ – ٦١ .

(٣) في الأنعام ٩١ ، والحج ٧٤ ، والزمر ٦٧.

الأول : دليل اللغة ، فإن لفظ " التوحيد " مصدر الفعل " وحد " والواو والحاء والدال أصل في اللغة يدل على الانفراد[1] .

والتوحيد تفعيل فمعناه الإفراد ، وانفراد الله في ربوبيته وكمال صفاته ذاتي ليس بتفعيل من أحد ، فهو فرد في ربوبيته وكمال صفاته لا بإفراد مفرد ، فالإفراد الذي يكون من العبد لله عز وجل هو توجهه له بقصده وعمله وحده دون سواه ، وهذا هو التعبد ، فرجع معنى توحيد الله في اللغة إلى المعنى الذي ذكرنا وهو : إفراد الله بالعبادة .

الثاني : دليل إجماع الخلق ، فالخلق مجمعون على إفراد الله بالربوبية وكمال صفاته ، لم يدع أحد في الخلق أبداً شركة في ذلك ، بل جميع بني آدم منذ أهبط إلى الأرض حتى اليوم على إفراد الرب بالخلق وكمال الصفات يقول ابن تيمية رحمه الله : ((وقد ذكر أرباب المقالات ما جمعوا من مقالات الأولين والآخرين في الملل والنحل

(١) انظر معجم مقاييس اللغة ٦ / ٩٠ .

والآراء والديانات فلم ينقلوا عن أحد إثبات شريك مشارك له في خلق جميع المخلوقات، ولا مماثل له في جميع الصفات، بل من أعظم ما نقلوا في ذلك قول الثنوية الذين يقولون بالأصلين النور والظلمة وأن النور خلق الخير والظلمة خلقت الشر ثم ذكروا لهم في الظلمة قولين : أحدهما أنها محدثة فتكون من جملة المخلوقات له ، والثاني أنها قديمة لكنها لم تفعل إلا الشر فكانت ناقصة في ذاتها وصفاتها ومفعولاتها عن النور))[1] وذكر نحو ذلك الرازي أيضاً[2] . وهذا الإفراد في الربوبية وكمال الصفات هو الإيمان الذي أثبته الله للمشركين في قوله : ((وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ))[3] أي وإن أفردوا الله في ربوبيته وصفاته فإنهم يشركون به في العبادة وهذا خلاف التوحيد الواجب . فدل هذا على

(١) التدمرية ١١٥ – ١١٦ .
(٢) التفسير الكبير ٢ / ١١٢ .
(٣) يوسف ١٠٦ .

أن التوحيد إذا أطلق ليس هو التوحيد في الربوبية والصفات لأنه حاصل من الخلق .

الثالث : دليل مراد الشرع واستعماله ، فإن هذا المعنى المذكور وهو إفراد الله بالعبادة هو مفهوم الشرع الذي يطلق عليه اسم التوحيد . فهو ما بعثت به الرسل لم تأمر إلا به : ((وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ)) [(١)] وفهم المخاطبون بالرسالات هذا المفهوم من خطابها : ((قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ))[(٢)] وقالوا : ((أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا)) [(٣)] ، ورد في أحد ألفاظ حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه النبي ﷺ إلى أهل الكتاب في اليمن

(١) التوبة ٣١ .
(٢) الأعراف ٧٠ .
(٣) ص ٥ .

((فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله)) [1] وقد فسر هذا الذي سمي في هذه الرواية توحيداً بالعبادة ففي لفظ آخر ((فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله)) [2] وفي لفظ آخر ((فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله)) [3] فجعل الشهادة هي معنى التوحيد . وفي رواية لحديث ابن عمر في مباني الإسلام ((بني الإسلام على خمس : على أن يوحدوا الله ...))[4] فجعل الشهادة هي التوحيد . وفي حديث عمرو بن عبسة أنه أتى النبي ﷺ فقال : ما أنت ؟ قال ((نبي

(١) أخرجها البخاري انظر الصحيح مع الفتح ١٣/ ٣٤٧ حديث رقم ٧٣٧٢.
(٢) أخرجها البخاري انظر الصحيح مع الفتح ١٣ / ٣٢٢ حديث رقم ١٤٥٨ ومسلم ١ / ٥١ حديث ٣١ .
(٣) أخرجها البخاري انظر الصحيح مع الفتح ٣ / ٣٥٧ حديث ١٤٩٦ وانظر مسلم ١ / ٥٠ حديث ٢٩ .
(٤) أخرجه مسلم ١ / ٤٥ حديث ١٩ .

الله)). قال : آلله أرسلك ؟، قال ((نعم)) . قال : بأي شيء قال ((... وأن يوحد الله لا يشرك به شيئاً)) [(١)] .

وعرف الصحابة هذا المفهوم فاستعملوه في كلامهم ، ففي حديث جابر بن عبد الله في سياق صفة حجة النبي ﷺ قال ((فأهل بالتوحيد " لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك))[(٢)] فجعل الإهلال بالحج لله وحده لا شريك له توحيداً ، والحج من أعمال التعبد . ومفهوم الشرع هذا لمسمى التوحيد هو الذي فهمته الأمة واتفقت على إطلاق اسم التوحيد عليه ، قال الدارمي ((تفسير التوحيد عند الأمة وصوابه قول لا إله إلا الله وحده لا شريك له)) [(٣)] .

(١) أخرجه مسلم ١/ ٥٦٩ حديث ٨٣٢ .
(٢) أخرجها مسلم ٢ / ٨٨٦ حديث ١٢١٨ .
(٣) نقض الدرامى على بشر ٦ .

فظهر أن معنى لفظ " التوحيد " المعهود شرعاً والمعروف من إطلاقات اللغة والموافق لحال الخلق هو ((إفراد الله بالعبادة)).

المبحث الأول : أهمية التوحيد في ذاته

التوحيد في ذاته أهم المهمات ، هو أولها وآخرها ، هو عنوانها وموضوعها ، وما كان هذا قدره ومنزلته فلا غرو أن تكون لدراسته أهمية تليق بأهميته .

وتظهر أهمية التوحيد في ذاته في وجوه نفصل منها في المطالب الآتية :

المطلب الأول : كونه حق الله تعالى :

إن الحقوق تعظم بعظمة المتعلقة به ، وليس في الوجود أعظم ولا أكبر ولا أجل وأعز وأعلى من الله تعالى ، كيف وهو موجد الوجود ، فحقه أعظم وأكبر وأجل وأعز وأعلى الحقوق ، وما كان له هذه العظمة فلدراسته أعظم الأهمية .

والحق في اللغة هو الواجب ، يقال : حق الشيء : وجب[1] .

(١) انظر تهذيب اللغة ٣ / ٣٧٤ ومعجم مقاييس اللغة ٢ /

والتوحيد هو الواجب لله وجوباً ثابتاً متأكداً لا سبيل لإنكاره ، وهو الصواب الذي لا مدخل للخطأ فيه ، والصحيح الذي لا تنفذ شبهة إليه ، فهو حق الله لا شريك له فيه ولا ينبغي لغيره .

وتأكد وجوب التوحيد لله من جهتين :

١- فهو متأكد في ذاته لثبوته وتمكنه بإضافته إلى الله ، فالله هو أهله كما قال سبحانه : ((هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ)) (١) أي أهل لأن يُتقى بعبادته وتوحيده بالعبادة لأنه الذي لا ينبغي العبادة لأحد سواه ، ولا تحق إلا له ، فرجوع حق التوحيد إلى الله وتعلقه به سبحانه يجعله متأكداً في ذاته ولذلك وصف نفسه سبحانه بأنه (الحق) والمعبودات من دونه باطل فقال : ((ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ))(٢)

(١) المدثر ٥٦ .
(٢) الحج ٦٢ .

وقال : ((ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ)) [1] أي هو المعبود بحق ، الحق في العبادة له لا لغيره ، كما زاده بياناً سبحانه حين ذكر أنه ينادي المشركين به يوم القيامة فيقول : ((أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ)) ، ويقول : ((هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ)) أي على صحة دعواكم أنهم شركاء لي ، قال سبحانه إثر ذلك : ((فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ))[2] ، ولقد أطلق الله على نفسه اسم ((الحق)) في مواضع من كتابه ، قال سبحانه : ((فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ)) [3] ، وقال سبحانه : ((وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ))[4] وقال

(١) لقمان ٣٠.
(٢) القصص ٧٥ وانظر الآيات قبلها .
(٣) المؤمنون ١١٦ .
(٤) النور ٢٥ .

سبحانه : ((هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ))[1] وقال سبحانه : ((وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ))(٢) وقال : ((ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ)) [3] ، فالله هو الحق أي ذو الحق وصاحبه وأهله وكل ما عاد إليه حق وله الحق في الأمر والنهي سبحانه وتعالى وأن يعبد بامتثال أمره واجتناب نهيه .

٢- وهو – أي وجوب التوحيد – متأكد في قيام الخلق ووقوعه منهم لربهم سبحانه وذاك لأنه يوافق ما يجب أن يقع ، والخلق قسمان : * خلق مسخر غير مكلف فهؤلاء موحدون لله أبداًلا ينقطع منهم توحيد الله بحال، قال الله في هذا القسم : ((أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ

(١) الكهف ٤٤ .
(٢) يونس ٣٠ .
(٣) الأنعام ٦٢ .

ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ))[1] وقال سبحانه : ((أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ))[2] وقال سبحانه : ((وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ))[3] .

* والقسم الآخر خلق مكلف تمكن منهم المعصية فمنهم من يوحد الله فيوافق ما يجب أن يقع ، ومنهم من يعود بحق الله إلى غيره فيخرج من حد التوحيد ، ولذا لما

---

(١) النحل ٤٨ – ٤٩ .

(٢) النور ٤١ .

(٣) الإسراء ٤٤ .

ذكر سبحانه غير المكلفين في قوله : ((أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ)) عمهم من غير استثناء ،فالجميع يسجد له ، ثم لما ذكر بعض المكلفين قال : ((وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ))[1] فاستثنى ، وهذا القسم تعاهد الله حقه فيهم ، ففطرهم في أول الأمر على توحيده كما قال : ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا))[2] وقال ((إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم))[3] ، ثم لما أهبطهم إلى الأرض أخبر أنه لا يتركهم بلا هدىً يرسله فيهم يحفظهم من الصوارف عن التوحيد إن هم

(١) الحج ١٨ .
(٢) الروم ٣٠ .
(٣) من حديث قدسي أخرجه مسلم ٤ / ١٩٧ ، حديث رقم ٢٨٦٥ .

اتبعوه قال سبحانه : ((قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا))[1] ، ثم كلما نسوا العلم وخرجوا عن الهدى بعث لهم رسله تهديهم : ((كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ))[2] . فهذا القسم من أطاع الله منهم ووحده

(١) طه ١٢٣ – ١٢٤ .
(٢) البقرة ٢١٣ .

فحصول التوحيد منه موافق لما يجب أن يقع ، وهذا وجه تأكد وجوبه في عملهم به ، ومن عصى الله فلم يوحده فقد قال الله فيه كما في الآية المذكورة آنفاً : ((حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُ)) فوجوب العذاب على ترك التوحيد واستحقاق المعرض عن التوحيد العذاب هو وجه تأكد وجوب التوحيد في هذه الحال .

فرجع تأكد ثبوت ووجوب التوحيد من جهة قيام الخلق به إلى وجهين :

موافقته لما يجب أن يقع فيمن أدى التوحيد سواءً ممن هو مسخر أو مكلف مطيع .

استحقاق العذاب على تركه فيمن أعرض عنه .

وقد جاء هذا المعنى على لسان الشارع ﷺ ، ففي حديث معاذ بن جبل قال : كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي ((يا معاذ : أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله ؟!)) قلت الله ورسوله أعلم . قال ((حق

الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً)) [1] فمن عبده فقد أدى الواجب عليه وهذا حق الله عليه ومن أعرض استحق العذاب لحق الله عليه .

وإنما كان التوحيد حقاً خالصاً لله لأمرين فصَّل فيهما القرآن تفصيلاً بيناً على ما سنذكر طرفاً منه ؛ وهذان الأمران هما :

الأول : أنه رب المخلوقات ، خلقهم وهو يملكهم وهو الذي يدبر شؤونهم : يسير نظام الكون ، ويقدر الأحوال من رزق وتكاثر وحياة وممات وسائر شأنهم دقه وجله ، ويبعثهم يوم القيامة للحساب والجزاء . ومن كان هذا شأنه فالحق له على خلقه أن يعظموه حباً وذلاً له سبحانه ويوحدوه بهذا التعظيم والذل ، فكما أنه خلقهم وحده لا شريك له ، وملكهم له وحده لا شريك له ، ويدبر

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٦ / ٥٨ حديث رقم ٢٨٥٦ ، ومسلم ١ / ٥٨ حديث رقم ٤٩ .

أمرهم وحده لا شريك له ، فحقه أن يعبد وحده لا شريك له . فالتوحيد حقه على الخلق لربوبيته لهم وحده بلا شريك .

الثاني : أنه الكامل ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً وأسماءً كمالاً مطلقاً لا ذم فيه ولا نقص ولا ند له فيه ولا سمي ، ليس كمثله شيء ، ولا يحاط به علماً ، وله المثل الأعلى ، جل وتعالى وعز سبحانه ، ومن كان هذا شأنه استحق التعظيم والتذلل ، والعبادة حق له وحده ، فكما أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه لا كفؤ له ولا مثل فحقه أن يعبد وحده لا شريك له فالتوحيد حقه على الخلق لذاته سبحانه .

وقد قرر القرآن هذين الأمرين من وجوه عدة ، وكل أمر كثرت وجوه تقريره وتعددت طرق الدلالة عليه تأكد ثبوته تأكداً بالغاً .

أما الأمر الأول : فإن قاعدة القرآن الاستدلال للتوحيد بالربوبية وقد جاء تقرير ذلك من وجوه عدة منها :

١ - استدلال الرب سبحانه بالربوبية للتوحيد والأمر به، ومن أمثلة هذا الوجه :

- قوله سبحانه في أول أمر ورد في المصحف : ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ))(١) ، ففي الآية الأولى أمر الله الناس بعبادته وأسند ذلك إلى ما يعلمونه من ربوبيته لهم وذكر بعض أفراد ربوبيته ، فأمر بالتوحيد ثم استدل له بالربوبية ، وفي الآية الثانية بدأ بذكر أفراد ربوبيته ثم نهى عن الشرك ثم ذكر علم الخلق بربوبيته فذكر الدليل ثم أتبعه بذكر دلالته ثم أردفه بتأكيد حجةٍ للدليل وهي إقرار الخلق به وعلمهم إياه .

---

(١) البقرة ٢١ – ٢٢ .

- قوله سبحانه : ((إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ۝ رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَـٰرِقِ)) [1]
فأكد التوحيد بالجملة الاسمية واستعمال ((إن)) التي للتأكيد وحرف ((اللام)) الذي للتأكيد في قوله ((لَوَٰحِد)) ثم ذكر دليله وهو الربوبية .
- قوله سبحانه : ((ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ))[2] ففي قوله ((ذَٰلِكُم ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ)) ذكر الربوبية ثم ذكر لازمها وموجبها ، فذكر الدليل أولاً ثم ذكر مدلوله ، وكذا في قوله ((خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ)) ذكر الربوبية ثم أمر سبحانه بعبادته فذكر دليل الأمر وموجبه أولاً ثم أمر سبحانه .

(١) الصافات ٤ – ٥ .
(٢) الأنعام ١٠٢.

- قوله سبحانه : ((رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ)) (١) فذكر الدليل ثم أمر بموجبه ومدلوله ، ولما كان الخطاب في هذه الآية لنبيه ﷺ ورسوله إلى الناس والقدوة لأوليائه أردف الأمر بالتوحيد بالأمر بالاصطبار عليه .

ونحو هؤلاء الآيات كثير يطول حصره جداً .

٢- استدلال الرسل بالربوبية للتوحيد والدعوة إليه :

ذكر القرآن احتجاج الأنبياء بالربوبية للتوحيد والدعوة إليه ، ففيه ذكر دعوة نوح عليه السلام أمر فيها قومه بقوله : ((ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ)) وقوله : ((ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ)) واستدل لوجوب هذا الأمر وصحته بقوله : ((أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ

(١) مريم ٦٥ .

ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ﴿١٩﴾ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا))(١) وفيه قول هود عليه السلام لعاد : ((فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ))(٢) فأمر بالتوحيد واستدل له .

وفيه : ((۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ))(٣) فأمر بالتوحيد وأقام دليله ثم كرر الأمر ، فجعل الدليل

(١) الآيات من سورة نوح .
(٢) الشعراء ١٣١ – ١٣٣ .
(٣) هود ٦١ .

واسطة بين ابتداء الأمر وتكراره ، فالربوبية دليل التوحيد وموجبه .
وفيه قول شعيب لقومه : ((وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ))(١) وقول عيسى عليه السلام : ((وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ))(٢) شعيب عليه السلام أمر بالتوحيد ثم ذكر دليله ، وعيسى عليه السلام بدأ بالدليل ثم ذكر موجبه حيث أمر بالتوحيد ، ووصف هذا بأنه صراط مستقيم ، إذ لا يكون الرب إلا المعبود ، فلا يستحق العبادة إلا الرب ، فمن استدل بالربوبية للتوحيد فقد سلك طريقاً معتدلاً قوياً موصلاً إلى الله . ونحو هذا في القرآن كثير .
٣- مُحاجة المشركين في تركهم التوحيد بالربوبية : وهذه المُحاجة تظهر في ثلاثة وجوه : حجتان ونتيجة .

(١) الشعراء ١٨٤ .
(٢) آل عمران ٥١ ونحوها في مريم ٣٦ والزخرف ٦٤ .

أما الأول فهو الاحتجاج عليهم بإقرارهم بالربوبية لله وحده ، لإلزامهم بالتوحيد حقاً خالصاً لله ، وهذا في آيات منها :

- ((أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ))[1] ، فذكر أفراداً من أفعال الربوبية وتوجه بسؤال تقريري في كل منها بقوله : ((أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ)) أي : أإله مع الله فعل هذا ؟![2] وجواب هذا السؤال ولا بد : لا ، وهذا هو وجه التقرير في السؤال : علمهم بأنه ليس معه رب فعل هذا ، فتتم الحجة عليهم ، ويحصل الإفحام ، إذ كيف تقرون بألا رب معه فعل هذا لكم ثم تجعلون معه إلهاً آخر تعبدونه معه ؟ ! فكما أن ربوبية ما سواه باطلة بإقراركم

(١) النمل ٥٩ – ٦٤ .

(٢) هذا هو التقدير الصحيح لمعنى الآية ، ومن قدر المعنى : «هل مع الله إله آخر» من غير : «فعل هذا» فقوله ضعيف لأنهم لا ينكرون أن مع الله آلهة أخرى فيكون جوابهم : نعم . ولا حجة في هذا عليهم . أما مع تقدير : «فعل هذا» فالجواب : لا وتقوم الحجة . انظر مدارج السالكين ١/ ٤١٢ .

وشهادتكم فألوهية ما سواه باطلة ، إذ لا يصح أن يعبد من يعجز عن فعل هذا .

ولذلك ختم المُحاجة بعد ظهور الحجة ووقوع الإفحام بقوله : ((قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ))

أي هاتوا حجة تبطل هذه الحجة الظاهرة القائمة عليكم وإلا فالزموا الحق وأذعنوا لهذه الحجة وتوجهوا بالتوحيد لله.

أما الوجه الثاني فهو الاحتجاج عليهم بخلو المعبودات من دونه من شيء من صفات الربوبية لإلزامهم بالتوحيد حقاً خالصاً لله ، وهذا في آيات منها :

((وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم

مُّسْتَكْبِرُونَ))[1] ، فذكر سبحانه خلو من يدعون من دونه من صفات الربوبية ثم قرر الحق ((إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ)) وهو المتصف بصفات الربوبية فلا إله إلا الرب ، وقوله ((قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ)) أي منكرة للشرك مع الله الرب غيره في العبادة ، وهذا احتجاج بعلمهم وإقرارهم .

- ((هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ))[2] فنفى أن تكون للمعبودات من دونه ربوبية على عابديها ، ولذلك فهم ظالمون بوضع العبادة في غير موضعها ظلماً بيناً فهم في ضلال مبين ، لظهور الحق بالدليل المذكور : أن لا رب إلا الله ، فمن ترك الحق البين كان ضلاله بيناً .

(١) النحل ٢٢ .
(٢) لقمان ١١ .

- ((أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)) (١)
وهذا بعد ذكر خلقه سبحانه الأرض والجبال والبحار والحيوانات والنباتات والليل والنهار والأفلاك ، يحضهم سبحانه إلى الإذعان لهذه الحجة القائمة وهي أن المنفرد بالخلق فلا يخلق غيره أحق بالتوحيد وأن يفرد بالعبادة وحده دون سواه .
- ((أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)) (٢)
وفي هذا السؤال تقرير أن ليس لله شركاء خلقوا كخلقه فيستحقون العبادة معه ، ولذلك قال ((قُلِ اللَّهُ)) أي قله ولن تجد مخالفاً لك في ذلك ، وعليه فالعبادة لله ، وتوحيده بها حقه على خلقه .

(١) النحل ١٧ .
(٢) الرعد ١٦ .

- ((قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ)) (١) ، فأخبر سبحانه عن خلو المعبودين من دونه من أي أصل من الأصول الجامعة لاستحقاق العبادة فلا يملكون شيئاً من الخلق ملكاً مستقلاً وليس لهم في شيء من الخلق ملكاً بالشركة ، وليس لهم إعانة للخالق في الخلق والتدبير ، وليس لهم على الخالق جاهٌ يدلون به إليه بذواتهم أو مكانتهم فتكون لهم عنده كلمة مطاعة وإن لم يأذن أو لم يرضى . فحسم مادة الشرك من أصلها ، وأقام أساس استحقاقه للعبادة وحده دون سواه ، فالتوحيد حقه لاحق لسواه فيه ، وبعد هذا التقرير ورد قوله سبحانه : ((۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) سبأ ٢٢ .

وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ))[1] وقوله : ((وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ)) قدّم ((إِنَّآ)) على ((إِيَّاكُمْ)) ثم قال : ((لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)) فقدم ((لَعَلَىٰ هُدًى)) على ((أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ)) لأن الهدى متعين لموحدي الله بالعبادة بعد ظهور الحجة الواضحة الحاكمة بالتعيين حتى صار للحجة معلوماً علماً مغنياً عن ذكره ، والمعنى إنا على هدى وإنكم لعلى ضلال مبين ، لأنا وحدنا الذي يرزقنا وأشركتم به .

أما الوجه الثالث فهو أن الله سفّه فعل المشركين أن عبدوا من لا يتصف بصفات الربوبية الموجبة للعبادة وهذا التسفيه نتيجة لقيام الحجة على بطلان هذا الفعل وظهورها جلية غير مدفوعة ، وهذا التسفيه ورد في آيات عديدة منها :

(١) سبأ ٢٤ .

- ((وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا))[1] .

- ((وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـًٔا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ))[2] .

- ((فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ))[3] .

- ((قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ))[4] .

---

(١) الفرقان ٣ .

(٢) النحل ٧٣ .

(٣) الأعراف ١٩٠ – ١٩١ .

(٤) الزمر ٣٨ .

وأما الأمر الثاني : من الأمرين الذين لهما كان التوحيد حقاً خالصاً لله وحده فإن الآيات في بيان استحقاق الله التوحيد لكمال ذاته وصفاته كثيرة ودلت من وجوه عديدة منها :

١- تقرير استحقاق الله للتوحيد بذكر صفاته العلى : وهذا في آيات لا تحصى إلا بتطويل كثير ، نقتصر منها على آيات سورة الحشر : ((هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ)) (١) ،

(١) الحشر ٢٢ – ٢٤ .

ذكر سبحانه ألوهيته ، وسبح نفسه عما يشركون ، وذكر تعبد ما في السموات والأرض له ، وسرد بين ذلك صفاته سبحانه – فأفرد بعضها بالذكر وأجمل ((لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ)) – التي استحق لها ذلك وهي دليل لهذا الاستحقاق .

٢- الاستدلال بكمال الصفات للأمر بالتوحيد والدعوة إليه : ومن أمثلة هذا :

- ((فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا))[1] ، وهذا سؤال تقرير للمعلوم من أنه ليس له سبحانه مماثل في صفاته وكماله فيستحق العبادة معه أو من دونه .

- ((ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا

(١) مريم ٦٥ .

ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ
أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ
إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا
يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ لَآ إِكۡرَاهَ فِي
ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ
بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ
ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)) [(١)] ، ذكر سبحانه الحجة لاستحقاقه التوحيد بذكر صفات من صفاته العلى وأسمائه الحسنى ، وقضى بظهور الحجة وتبينها تبيناً لا حاجة معه للإكراه على التوحيد ، فلا يلتزمه إلا أهل الرشد والاستقامة ولا يتركه إلا أهل الغي والضلال .

---

(١) البقرة ٢٥٥ – ٢٥٦ .

٣- الاستدلال بكون الناقص ذاتاً وصفاتٍ لا يكون إلهاً وتسفيه المشركين في اتخاذهم عادم صفات الكمال إلهاً : وهذا شاهد ظاهر قوي لاستحقاق الله التوحيد فهو الكامل وحده كمالاً مطلقاً ذاتاً وصفاتٍ ، وهذا المعنى ورد في آيات كثيرة منها :

- ذكر الله قول إبراهيم عليه السلام لأبيه : ((يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِى عَنكَ شَيۡـًٔا)) [١] ، ففي هذا تقرير معلوم ظاهرٍ غير خفي أن الناقص عادم صفات الكمال لا يكون إلهاً يعبد إنما تكون العبادة للسميع البصير الغني كامل الصفات فالتوحيد حقه .

- وبنحو ما ألزم عليه السلام أبيه ألزم قومه : ((قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمۡ هَـٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ

(١) مريم ٤٢ .

أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ))[1] ، فأظهر لهم علة بطلان عبادة آلهتهم فهي لا تتكلم وهذا نقص أذعنوا للحجة فيه ، وسلموا بالظلم الذي وقع منهم بوضع العبادة في غير موضعها ، لكنهم رجعوا إلى علمٍ ورثوا عن آبائهم تجاهله لا لحق بل لعادة استحكمت على عمى وضلال ، فكرر عليهم الحجة بعدم أهلية الناقص للعبادة ، فلم يجدوا حجة ناقضة ، فلجؤوا إلى البطش وإلغاء وجوده شأن فاقد الحجة إذا أخذته العزة بالإثم .

(١) الأنبياء ٦٢ – ٦٨ .

- ((وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا))[1] ، فدل سبحانه على عدم أحقية معبودهم هذا بالعبادة كونه لا يتكلم ولا يهدي ، ناقص الصفات والأفعال . ومثله سواءً بسواء قوله سبحانه : ((فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوۡنَ أَلَّا يَرۡجِعُ إِلَيۡهِمۡ قَوۡلٗا وَلَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا))[2]

- وقال سبحانه : ((إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ

---

(١) الأعراف ١٤٨ .

(٢) طه ٨٨ .

لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ)) [(١)] ، فهذه حجة ظاهرة في أن المستحق للعبادة لا يكون إلا كاملاً متصفاً بصفات الكمال ، لأن من عدمت فيه هذه الصفات لا يكون إلهاً وقد نبه بصفتي المشي والبطش إلى نوع الصفات الفعلية ، وبصفتي السمع والبصر إلى نوع الصفات الذاتية[(٢)] .

وخلاصة القول : أن التوحيد حق خالص لله عز وجل ، استحقه سبحانه لذاته لكماله ذاتاً وصفاتاً وانفراده بهذا الكمال فلا شريك له فيه ، ولربوبيته على خلقه وانفراده بالربوبية فهو الرب لكل ما سواه وكل شيء مربوب له.

ولهذا كان التوحيد في ذاته أهم المهمات ، فليس أهم من حق يعود إلى الخالق سبحانه ، فكانت دراسة التوحيد والعناية بفهمه وتحقيق العلم به ليتحقق العمل به من أهم المهمات .

---

(١) الأعراف ١٩٥ .

(٢) انظر الصواعق المرسلة ٣/ ٩١٥ .

المطلب الثاني : كونه علة خلق الخلق :

تقدم قريباً التنويه إلى أن الله تعالى خلق الخلق قسمان : خلق مسخر وخلق مكلف ، وأوردنا آيات دالات على أن جميع الخلق المسخر يسبح لله ويسجد له ويعبده وحده لا شريك له ، فالأفلاك والشجر وأمم الدواب والطير وأنواع الجمادات والبحار وكل مسخر في السماء والأرض خلقه الله عابداً له وحده يسبح له ويسجد له على نحو لا نفقهه ، ثم قسم سبحانه المكلفين إلى نوعين : نوع عصمهم من أن يعصوه فهم في طاعته دائبون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويعبدون الله لا يستحسرون عن عبادته أي لا ينقطعون عنها أبداً كما قال سبحانه : ((وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ))[1] أي خاضعون لعبادته من غير إعراض ولا إباء ، وهم في إقبالهم على عبادته سبحانه لا ينقطعون أبداً فهم دائبون عليها أبداً وقد

(١) الأنبياء ١٩ .

فصل سبحانه وجوه عدم انقطاعهم في قوله : ((يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ))[١] وقوله : ((يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ))[٢] أي لا يقطعهم عن عبادة الله فتور وتعب وكسل ووهن ، ولا يقطعهم سأم وملل ، فنفى عنهم الانقطاع بنوعيه الحسي والمعنوي فإن الواحد منا قد يكون مقبلاً على العبادة راغباً فيها لكن يقطعه عنها مع رغبته فيها تعب جسده ووهنه ، وقد يكون نشيطاً موفور القوة لكنه سئم وملل ، أما هؤلاء فلا فتور ولا سأم ، وهم الملائكة عليهم السلام . فجميع هؤلاء المخلوقات المذكورات قائمة على توحيد الله مؤدية له مسخرة له ومعصومة من مخالفته ، جمعها على توحيده سبحانه وإن فرّق أجناسها وأنواعها وخصائصها .

(١) الأنبياء ٢٠ .
(٢) فصلت ٣٨ .

بقي النوع الثاني من المكلفين وهم النوع الذي تمكن منه المعصية فليس هو معصوم عن أن يخرج عن الواجب عليه من توحيد الله ، فقد تجتاله الصوارف فيفسق عن التوحيد . وهؤلاء هم الجن والإنس وهؤلاء أعلن الله في كتابه أنه إنما خلقهم لعبادته لم يخلقهم لغير ذلك ، فقال قولاً بيناً فصلاً : ((وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ))[1] خصهم بالذكر هنا لأنه أراد العبادة منهم شرعاً وشاء أن يكون فيهم من يعصي فلا يعبد ،لا كهيئة بقية المخلوقات التي لم يشأ إمكان المعصية منها إما خلقها عابدة له مسخرة لذلك ، أو كلفها بالعبادة تكليفاً وشاء عصمتها من المعصية فلا تكون إلا مطيعة عابدة ، ولذلك كان معنى قوله : ((إلا لِيَعْبُدُونِ)) إلا لآمرهم بالعبادة وأطلبها منهم فيختلفون فمنهم من يطيع فأثيبه ومنهم من يعصي فأعاقبه ، وهذا المعنى مذكور عن علي

(١) الذاريات ٥٦ .

رضي الله عنه وعن عكرمة ومجاهد[1] ويؤيده قوله سبحانه : ((وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا))[2] ، فيكون خلقهم ليبلوهم في التوحيد كما قال سبحانه في أكثر من آية في كتابه منها : ((وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ))[3] وقوله : ((إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا))[4] وقوله : ((ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ))[5] وقوله : ((إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ))[6] .

---

(١) انظر زاد المسير ٨/ ٤٢ ، وتفسير البغوي ٤ / ٢٣٥ ، وتفسير السمعاني ٥/ ٢٦٤ ، وتفسير القرطبي ١٧/ ٥٥-٥٦ .
(٢) التوبة ٣١ .
(٣) هود ٧ .
(٤) الكهف ٧ .
(٥) الملك ٢ .
(٦) الإنسان ٢ .

ولتحقيق هذه الغاية بعث الله الرسل ، وأنزل الكتب ، وجعل الجزاء ، وخلق له الجنة والنار ، وقسم خلقه إلى وأولياء له وأعداء له ، فأهل التوحيد هم أولياؤه أهل جنته متابعو رسله منفذو أوامره ، والآخرون أعداؤه أهل النار مخاصموا رسله معرضون عن أمره . ولهذا أيضاً كان التوحيد أول واجب على المكلف به يدخل الإسلام وبه يخرج من الدنيا . فإذا كان التوحيد بهذه المثابة العالية والمكانة المكينة فهو أهم المهمات ، ولا مهم إلا ما تعلق به ، وما سواه فهباء ، ومن ذا الذي لا يهتم بما خُلق له ، وما خاطبته الرسل به ، وأنزل الله له الكتاب به ، وعلى القيام به مدار الجزاء ؟!! ومن كان له في ذاته هذا الشأن فلدراسته ذات الشأن .

المطلب الثالث : كون التوحيد قضية الوجود :

هذا المطلب هو محصلة المطلبين قبله ، والوجود ليس فيه إلا الخالق ومخلوقاته ، ليس ثمة شيء آخر ، والتوحيد هو الصلة بينهما ، وما دام التوحيد بهذه المثابة هو العلاقة

بين الخالق وخلقه ، من أذعن لله به حصّل الأمن والسعادة ، ومن أعرض عنه فلا أمن ولا سعادة وهو في الدنيا من أهل بغض الله المحجوب عنهم فضله وفي الآخرة من أهل النار أبداً ، يعذب لا ينعم أبداً ، ما دام التوحيد كذلك فهو قضية الوجود لا شأن في الوجود إلا شأنه ، فأي أهمية تفوق أهميته ؟!! وأي دراسة أحق أن تبذل إلا دراسته .

وكون التوحيد هو قضية الوجود أمر قررته النصوص في الكتاب والسنة ، وشاهد ذلك في أمور :

أولها أن الله أعلن القطيعة بينه وبين المشركين بتسجيله سبحانه البراءة منهم في قوله : ((وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ))(١) . وفي الحديث القدسي : ((من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته

(١) التوبة ٣ .

وشركه))[1] فهذه براءة جازمة ، وقضى سبحانه أن لا أولياء له إلا المؤمنون : ((ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ))[2] وقال : ((وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ))[3] وقال نافياً الولاية عن المشركين مثبتاً إياها للمؤمنين : ((وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ))[4] ، فهذه القطيعة الحاصلة بين المشركين وخالقهم مرجعها إلى تركهم توحيده سبحانه ، والصلة الحاصلة بين المؤمنين وخالقهم مرجعها إلى توحيدهم ، فالعلاقة بين الله وخلقه مدارها على التوحيد .

(١) أخرجه مسلم ٤ / ٢٢٨٩ حديث رقم ٢٩٨٥
(٢) البقرة ٢٥٧ .
(٣) آل عمران ٦٨ .
(٤) الأنفال ٣٤ .

وقد أمر الله المؤمنين الموحدين أهل ولايته بقطع كل العلائق إلا العلاقة مع الله ، قال ﷺ ((أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله))[1] فلا يرتبط الموحد بعلاقة ما إلا وحظ التوحيد هو عروتها التي عليها يعوِّل، فلا يوالي إلا لحظ التوحيد، ولا يعادي إلا لحظ التوحيد ، ولا يحب إلا لحظ التوحيد ، ولا يبغض إلا لحظ التوحيد ، وليس هذا في الوشائج العامة فقط بل وفي أفراد المعاملات ، قال ﷺ ((من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان))[2] فالتوحيد هو نظام حياة المؤمن ،

(١) أخرجه أحمد ٣٠/ ٤٤٨ حديث رقم ٨٥٢٤ والطيالسي ص ١٠١ حديث رقم ٨٤٧ وابن أبي شيبة ١١/ ٤١ رقم ١٠٤٦٩ والبيهقي في الشعب ١ / ٤٦ رقم ١٤ وانظر الصحيحة للألباني رقم ١٧٢٨ .

(٢) أخرجه أحمد ٢٤/ ٣٨٣ رقم ١٥٦١٧ وص ٣٩٩ رقم ٥٦٣٨ ، والترمذي ٤/ ٥٧٨ رقم ٢٥٢١ وأبو يعلى ٢/ ١٧٧ رقم ١٤٨٣ وص ١٨٢ رقم ١٤٩٨ ، وأبو داود ٤/ ٢٢٠ رقم ٤٦٨١ ، والحاكم ٢/ ١٦٤ وانظر الصحيحة رقم ٣٨٠ .

عطاؤه توحيد ، ومنعه توحيد ، وحبه توحيد ، وبغضه توحيد ، ونكاحه توحيد ، وقد جمع النبي ﷺ الدلالة على أن كل حركة في حياة المسلم توحيد في قوله ﷺ ((لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين))[1] ولما قال له عمر رضي الله عنه ((يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي)) قال له ﷺ ((لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك)) فقال عمر رضي الله عنه : فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي ، فقال النبي ﷺ ((الآن يا عمر))[2] ولا معنى لحبه ﷺ إلا متابعته على هديه وسنته حذو القدة بالقدة وهذا هو التوحيد فلم يكن منه ﷺ إلا التوحيد ، وقد نفى ﷺ الإيمان عمن لم يقدم ذلك على أخصاء الخلق به ثم عمومهم ، بل وأقسم على تقديمه على النفس ، ففي هذا قطع العلائق حتى مع النفس إلا لله وحده ، وهذا أدل

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١ / ٥٨ رقم ١٥ ومسلم ١ / ٦٧ رقم ٤٤ .
(٢) أخرجه البخاري ، البخاري مع الفتح ١١ / ٥٢٣ رقم ٦٦٣٢ .

شيء على أن التوحيد هو قضية الوجود ، وهذا تأكد في القرآن في مواضع منها قوله سبحانه : ((قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ))(١) وأعظم ما أمر الله بقطع العلائق به : الشرك وأهله ، وقد جعل الله البراءة من المشركين صنو التوحيد فقال : ((قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ))(٢) وقد جعل الله إبراهيم عليه السلام قدوة في البراءة من الشرك وأهله فقال : ((قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ

(١) التوبة ٢٤ .
(٢) الأنعام ١٩ .

وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ))[1]، فهذه براءة صارمة من المشركين وشركهم ومعبوداتهم من دون الله ، وصورتها : الكفر بذلك كله أي بالمشركين وبالشرك الواقع منهم وبالمعبودات التي أشركوها مع الله ، وتمكن العداوة الظاهرة بالهجران والمجاهدة والبغضاء الباطنة بسخط القلوب وبغضها ، وهذه البراءة دائمة في الحياة ما دام حال المشركين على الشرك حتى يرجعوا إلى التوحيد .

وقد ضرب الله لعباده أمثلة ناصعة لتوثيق الصلة بالله بتوحيده وبالبراءة من الخارجين عن التوحيد ، فهذا نوح عليه السلام يقول الله له في ابنه الذي هو ابنه من صلبه :

(١) الممتحنة ٤ .

((إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍ)) [١] نفى أن يكون من أهل دينه واعتقاده لأن قرابة التوحيد أقوى من قرابة النسب ، وعلل هذا النفي بأنه عمل عملاً غير صالح وهو الكفر والتكذيب[٢] . قال ابن عباس رضي الله عنهما ((لو كان من أهلك لنجيته لك كما أنجيتك ولكنه عمل غير صالح))[٣] وفسر ﵁ ((عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٍ)) بقوله ((خالفه في العمل والنية))[٤] فأهل التوحيد هم أهل الموحد ، وأهل الشرك ليسوا أهلاً له وإن كانوا قرابته . وهذا إبراهيم عليه السلام تبرأ من أبيه الذي هو أبوه ، قال الله في ذلك:((فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ

(١)هود ٤٦ .
(٢) انظر تفسير القرطبي ٩ / ٤٦ .
(٣) تفسير أبي حاتم ٦ / ٢٠٣٩ رقم ١٠٩٢٥ و ١٠٩٢٧ .
(٤)تفسير أبي حاتم ٦ / ٢٠٣٩ رقم ١٠٩٢٥ و ١٠٩٢٧ .

إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ)) [1] وهؤلاء أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم قاتلوا يوم بدر وأحد وغيرهما آباءهم وأبناءهم وقرابتهم فمنهم من قتل أباه ومنهم من قتل أخاه ومنهم من قتل خاله[2] فأنزل الله فيهم : ((لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ))[3] فجعلهم الله حزبه وأخبر برضاه عنهم

(١)التوبة ١١٤ .
(٢)انظر زاد المسير ٨ / ١٩٨ .
(٣)المجادلة ٢٢ .

وما أعده لهم من التأييد في الدنيا والنعيم في الآخرة . فما أدل ذلك لكون التوحيد قضية الوجود !!

وقضى سبحانه ألّا ولاية من مؤمن إلا لمؤمن : ((وَٱلْمُؤْمِنُون وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ))[1] وقال : ((لا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ))[2] وقال : ((وَٱلَّذِين كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ))[3] ، فانظر في هذه الآية كيف دلت لعنوان المطلب وتأمل في خبره سبحانه أنه إن لم تقم العلاقات بين الخلق على أساس الموالاة في التوحيد والمعاداة فيه فسيحصل من الشر والفساد الكثير مما يجمعه عدم التوحيد أو عدم وقوع كثير من أفراده وما يجر ذلك من سخط الله

(١) التوبة ٧١ .
(٢)آل عمران ٢٨ .
(٣) الأنفال ٧٣ .

وعقوباته . وكما أن التوحيد أصلٌ فروعه الطاعات ، فإن صنوه ((البراءة من المشركين)) أصلٌ فروعه البراءة من كل شيء لم يكن لله أو في الله .

ومن حقق هذه الصلة بالله حصل ثمراتها الجليلة الهنيئة ، وهي ثمرات دلت عليها النصوص ومنها :

أنه يجد حلاوة الإيمان كما قال ﷺ ((ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار))[1] .

أن من أقبل على التوحيد يُحصّل فرائضه ويستزيد من نوافله تسلم حركته في الحياة من كل سوء فلا يكون منه إلا خير لنفسه ولغيره ففي الحديث القدسي : ((ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١ / ٦٠ رقم ١٦ ، ومسلم ١ / ٦٦ رقم ٤٣ .

الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطيْنه ولئن استعاذ بي لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته))[1] .

أن الموحد يُحصّل ولاية الله ، ويكون ولياً لله ، فإن الله قد أعلن الحرب على من عاداه كما جاء في أول الحديث السابق ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب))

أن الموحد يحصل بتوحيده حب الله إياه وقد قال ﷺ ((إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل : إن الله تعالى يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل فينادي في أهل السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض))[2] وزاد في رواية ((وإذا أبغض عبداً دعا جبريل: إني أبغض فلاناً فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادي

(١) أخرجه البخاري الصحيح مع الفتح ١١ / ٣٤٠-٣٤١ رقم ٦٥٠٢ .
(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ١٣ / ٤٦١ رقم ٧٤٨٥ ومسلم ٤ / ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧ .

في أهل السماء : إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضه أهل السماء ثم توضع له البغضاء في الأرض))[1] .

فانظر إلى قوله ((يوضع له القبول في الأرض)) وقوله ((توضع له البغضاء في الأرض)) ، الأول في أهل محبته والثاني في الآخرين وقوله ((في الأرض)) دال لما ذكرنا من أن التوحيد قضية الوجود .

ثم إن التوحيد مطلوب من العبد عمره كله حتى الموت ، قال الله : ((قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ))[2] وقال سبحانه : ((اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ))[3] وقال سبحانه : ((وَاعْبُدْ رَبَّكَ

(١) أخرجها مسلم ٤/ ٢٠٣٠ رقم ٢٦٣٧ .
(٢) الأنعام ١٦٢ .
(٣) آل عمران ١٠٢ .

حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ))[1] وفي كون التوحيد واجب على كل عبد عمره كله يعود بسلوكه فيه على نفسه وعلى علاقته بكل ما حوله ظهور وجه من وجوه كونه قضية الوجود.

وجماع القول في بيان كون التوحيد قضية الوجود في قوله سبحانه يحكي قول إبراهيم لقومه : ((وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ))[2] فأهل التوحيد هم أهل الأمن والاهتداء في

(١) الحجر ٩٩ .

(٢) الأنعام ٨١ – ٨٣

الدنيا والآخرة لأنهم أهل ولاية الله وأهل الشرك هم أهل الخوف والضلال في الدنيا والآخرة لأنهم أهل عداوة الله .
هذا هو التوحيد ، قضية الوجود ، له أرسل الله رسله ، وفيه وقعت الخصومة بين الرسل وأممهم ، وفيه أُبيد قوم نوح وعاد وثمود وآل فرعون وقروناً أخرى ، ونصر نوح وهود وصالح وموسى وأنبياء الله والموحدون معهم . فأي أهمية أعلى منه ؟! .

المبحث الثاني
ضرورة الخلق إلى التوحيد

الخلق في ضرورة إلى التوحيد لا تستقيم حياتهم إلا به ، ومن كانت ضرورته لشيء تعلقت حاجته به فإنه يهتم له وبه أعلى الاهتمام ، فليس أهم مما تضطر إليه حياتك ، ولذا فإن العلم بالضروري والبحث فيه وتقليب النظر فيه من مهمات حياتك بل من ضروراتها ، ولذا فإن دراسة التوحيد ضرورة للعبد لضرورته إلى التوحيد . وهذان مطلبان معقودان لبيان وجه ضرورة الخلق إلى التوحيد .

المطلب الأول : فطرية التأله :

المقصود بالتأله التدين لإله بتعلق القلب وتوجهه إليه حباً ورجاءً وخوفاً . والتأله هو الغذاء الفطري الغريزي للروح ترجو به السكينة والطمأنينة وتطلب اللذة والسعادة ، ذلك أن العبد مخلوق محدث لم يُحدث نفسه ولم يحدث من غير شيء ، فهو في أصله ليس فيه القدرة على إيجاد نفسه ، وهو أيضاً لا قدرة له أن يستقل

بإحداث شيء لنفسه بعد وجوده ، فلا قدرة له على إيجاد هواء ولا ماء ولا غذاء ولا نحوه مما يقوم به جنسه ، ولا قدرة له على إيجاد حجارة ونحوه مما يحتاجه لمأواه ، ولا قدرة له على إيجاد دابة له ونحوها مما يحتاجه لمركبه ، وهو أيضاً لا يملك علماً بغده ولا قدرة له لإحداث غدٍ ولا قدرة مستقلة لإجراء مقادير غده ، وهكذا فهو في حاجة دائمة لا مقطوعة ولا ممنوعة لمن يوجده ويدبره ، وهذا ضعف بيّن فيه ، وهذا يجعله قلقاً مضطرباً مهموماً منهمكاً وإنما يسكن ويهدأ ويهنأ ويتقوى من ضعف باللجوء إلى موجده ومدبره والتعلق به ، والروح غذاؤها فيما يقويها ، ولذلك كان التأله فطرة الخلق لا تنفك عنهم أبداً ، فمن سلمت فطرته رشد تألهه فتدين للإله الحق ، ومن مرضت فطرته ضل تألهه فتدين لمن يظن فيه قوته ويغتر بنفع يظنه يأتيه منه .

والعبد لا ينفك من العبودية ، إن لم يعبد الله عبد غيره ولا بد ، يقول ابن تيمية رحمه الله ((وكل من استكبر عن

عبادة الله لا بد أن يعبد غيره ، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة ، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال " أصدق الأسماء : حارث وهمام"[1] فالحارث : الكاسب الفاعل ، والهمام : فعال من الهم ، والهم أول الإرادة ، فالإنسان له إرادة دائماً وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه ، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته ، بل استكبر عن ذلك ، فلا بد أن يكون له مراد محبوب يستعبده غير الله فيكون عبداً لذلك المراد المحبوب : إما المال وإما الجاه وإما الصور وإما ما يتخذه إلهاً من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان وقبور الأنبياء والصالحين أو من الملائكة والأنبياء الذين يتخذهم أرباباً أو غير ذلك مما عبد من دون الله ، وإذا

(١) ليس هذا في الصحيح بل هو من حديث ضعيف بلفظ «وأصدقها ...» أخرجه أحمد ٣١/ ٣٧٧ رقم ١٩٠٣٢ وأبو داود ٤/ ٢٨٨ رقم ٤٩٥٠ وانظر ضعيف النسائي للألباني ص ١٢٩ رقم ٠٢٣٣

كان عبداً لغير الله يكون مشركاً ، وكل مستكبر فهو مشرك ،ولهذا كان فرعون من أعظم الخلق استكباراً عن عبادة الله وكان مشركاً)) . قال : ((وقد وصف فرعون بالشرك في قوله : ((وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ))[1] بل الاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظم استكباراً عن عبادة الله كان أعظم إشراكاً بالله ، لأنه كلما استكبر عن عبادة الله ازداد فقره وحاجته إلى المراد المحبوب الذي هو المقصود : مقصود القلب بالقصد الأول فيكون مشركاً بما استعبده من ذلك)) [2]، ويقول ابن القيم ((إذا كان في القلب وجدان حلاوة الإيمان وذوق طعمه أغناه ذلك عن محبة الأنداد وتأليهها، وإذا خلا القلب من ذلك احتاج إلى أن

(١) الأعراف ١٢٦.

(٢) العبودية ١١١ .

يستبدل به ما يهواه ويتخذه إلهه ، وهذا من تبديل الدين وتغيير فطرة الله التي فطر عليها عباده قال تعالى : ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ))[1] أي نفس خلق الله لا تبديل له فلا يخلق الخلق إلا على الفطرة كما أن خلقه للأعضاء على السلامة من الشق والقطع لا تبديل لنفس هذا الخلق ولكن يقع التغيير في المخلوق بعد خلقه، كما قال النبي ﷺ ((كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها))[2] فالقلوب مفطورة على حب إلهها وفاطرها وتأليهه ، فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل

(١) الروم ٣٠ .

(٢) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٣ / ٢٤٥ رقم ١٣٨٥ ومسلم ٤/ ٢٠٤٧ رقم ٢٦٥٨ .

بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها ، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها))[(١)].

وفي كلامهما رحمهما الله بيان أمرين : الأول أن التأله فطري غريزي ، والثاني أن الله فطرهم على التأله له وحده سبحانه ، وقدر سبحانه أنهم قد تتغير فطرتهم في التأله له ولكن لا تتغير فطرتهم في لزوم التأله ، فإذا غيروا ما فطروا عليه من التأله له سبحانه تألهوا لغيره ولا بد . وفي الحديث الذي أورده ابن القيم رحمه الله ضرب الرسول ﷺ مثلاً بيناً لفطرة الخلق على التأله لله وعلى تغير هذه الفطرة .

وقد قرر الله عباده بما فطرهم عليه قال الله : ((وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيَ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ)) فأقروا بذلك واعترفوا به لأنهم فطروا على العلم به فإن

(١) إغاثة اللهفان ص ٦٥٩ وانظر الفتاوى ١٠/ ١٣٤ – ١٣٥ .

الله فطرهم على الحنيفية فكيف لا يعرفون ما قررهم به ويوافقون عليه ؟ فاجتمع بذلك الفطرة والميثاق .

المطلب الثاني : ضرورة الخلق إلى التأله لله وحده :

لما كان التأله فطرة غريزية في العباد ، وهم مفطورون بالتأله لله وحده ، وكانت هذه الفطرة قد تتغير فيتألهون لغيره ، فإن من أظهر ما يدل على بطلان هذا التغيير وسوأته وأنه تغيير وخلاف ما عليه الأصل اضطرار العباد للتأله لله وتعلق حاجتهم بذلك تعلقاً لازماً لا فكاك له ، وهذه الضرورة أدل شيء على أهمية التوحيد وأهمية معرفته والعمل به والدعوة إليه وأهمية دراسته .

وقد كتب ابن تيمية رحمه الله قاعدة في توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له فصل فيها وجوه ضرورة الخلق وشدة حاجتهم للتأله لله عز وجل وصل بها إلى تسعة وجوه شرح في كل منها معانٍ جليلة ظاهرة الدلالة ثابتة الحجة قوية البرهان في بيان سهل مقنع[1] ، وأخذ

(١) انظر في الفتاوى ١ / ٢٠ – ٣٦ .

ذلك عنه تلميذه ابن القيم فذكره في شيء من التهذيب وجعلها عشرة أوجه[1] .

ونذكر خلاصة لذلك لا تغني كثيراً عن الوقوف على أصلها في كلام الشيخين رحمهما الله فنقول :كل مخلوق سوى الله فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ولا يتم ذلك إلا بمعرفته بما ينفعه والوسيلة إلى حصوله ومعرفته بما يضره والوسيلة إلى دفعه . فهذه أربعة أمور ضرورية للعبد لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها : أمر مطلوب ينتفع به ووسيلة تدله عليه وتدفعه عنه ، وأمر مكروه يضره ، ووسيلة تدله عليه وتدفعه عنه ، وإرادة العبد وحركته متعلقة بهذه الأمور لتعلق وجوده وصلاحه بها ، وهو يتوجه بحبه ورجائه وخوفه إلى مصادرها ، فهو يحب جلب المنفعة ، ويرجو المعين على حصولها ، ويخاف منعه منها ، ويحب دفع المضرة ، ويرجو المعين على دفعها ، ويخاف إيقاعها به ، وهو

(١) انظر في إغاثة اللهفان ص ٤٠ – ٦٣ .

يتوجه إلى مصادرها بلوازم المحبة والرجاء والخوف ، فيحب ويؤدي لوازم المحبة ، ويرجو ويؤدي لوازم الرجاء ، ويخاف ويؤدي لوازم الخوف .

وإذا كان ذلك كذلك فقد تبيّن أن توحيد الله وإخلاص الوجه والعمل له عبادة واستعانة هو المحقق لحاجة الخلق وضرورتهم ، لأن الله هو الجامع لهذه الأمور الأربعة كلها ، فهو خالق ما ينفع العبد وموجده ، وهو الذي يهديه إليه ويقدر له جلبه والحصول عليه أو منعه ، وهو موجد ما يضره ، وهو الذي يهديه إلى العلم به ويقدر له دفعه أو وقوعه ، فإذا نظرت إلى هذا علمت أن الله هو المستحق للتوجه إليه بالحب والخوف والرجاء يطلب وجهه ويرجى رضاه ويخاف سخطه ، وإذا ضممت إلى هذا النظر في أن الله هو خالق العبد أولاً قبل النظر في أنه خالق نفعه وضره ، علمت أن العبد مفتقر إلى الله لذاته لا لأمر آخر جعله مفتقراً إليه ، بل فقره لازم له لا يمكن أن يكون غير مفتقر إليه ، كما أن غناء الرب وصف لازم له لا يمكن أن يكون غير غني ، فهو

غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً ، وفقر العبد إلى الخالق وصف له لازم في حال عدمه ووجوده ، ففي حال عدمه فهو مفتقر إلى الخالق فلا يُوجد إلا به سبحانه ، وما دام ذلك كذلك فالله هو الذي يجب أن يكون المطلوب المقصود لذاته ، ووجهه وقربه ورضاه هو المطلوب المحبوب ، وعبادته هي المعينة لحصول ذلك ، وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار ، وعبادة الله هي المعينة على دفع هذا الضار المكروه ، وعبادته سبحانه هو الذي يعين عليها بدلالتي التوفيق والإرشاد ، ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله تعالى : ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب .

ولكن الخلق إذا فسدت فطرهم يجتالهم عن إخلاص العبادة لله إلى صرفها أو شيء منها لسواه ما يباشرونه من نفع يحصلونه من السِّوى أو ضر يندفع عنهم بالسِّوى ،

فيلتفتون إلى ما يباشرونه عن خالق النفع والضر وخالق أسباب حصولهما أو اندفاعهما ومقدر ذلك سبحانه .
وعندئذ ينبغي على العبد أن ينتبه عند طلب حصول النفع أو دفع الضر إلى أمور :
أولها : أن الله هو الذي يعلم ما يصلح العبد وما يضره ((أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ))[1] هو أعلم بذلك من علم العبد لنفسه ، ولا يعلم مخلوق ذلك إلا على سبيل الظن، وهو قبل ذلك لا يعلم مصلحتك حتى يعرِّفه الله إياها ، ولا يقدر على تحصيلها لك حتى يقدره الله تعالى عليها ، ولا يريد ذلك حتى يخلق الله فيه إرادة ومشيئة فعاد الأمر كله لله سبحانه .
الثاني : أن الله هو النافع الضار والمخلوق ليس عنده نفع ولا ضر ولا عطاء ولا منع ولا عز ولا ذل بل الله وحده هو الذي له ملك ذلك وإذا وقع من المخلوق من نفع أو ضر فبإذن الله وخلقه .

(١) الملك ١٤ .

الثالث : أنه ليس هناك جهة تطمئن النفس بالتوجه إليها وتسكن إلا الله عز وجل الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم ، يده سحاء الليل والنهار الصمد السيد سبحانه ، والمخلوق لا يدوم نفعه فهو في ذاته إلى عدم ، وينفع في حال دون حال ، وهو لا يقدر على النفع دائماً ولا يقدر على كل نفع يأتي منه نفع في شيء ويعجز عن آخر أما الله فلا بد للعبد منه في كل حال وفي كل وقت وأينما كان فهو معه .

الرابع : أن الله غني عن العبد فهو يحسن إليه لا لمنفعة ترجع إليه سبحانه ولا مع مضرة عليه سبحانه ولكن رحمة وتفضلاً ، أما المخلوق فلا يحسن إلا لحظ نفسه ، ولا يقصد منفعتك بالقصد الأول ، بل إنما يقصد منفعته بك ، فالخلق إنما يحسن بعضهم لبعض لحاجتهم إلى ذلك وانتفاعهم عاجلاً أو آجلاً ، ولولا تصور ذلك النفع لما أحسن أحد إلى أحد فهو في الحقيقة إنما أراد الإحسان إلى نفسه وجعل إحسانه إلى غيره وسيلة وطريقاً إلى الوصول إلى نفع ذلك الإحسان إما بجزاء ومعاوضة أو

حتى طلب الثناء والمدح والشكر ، أما الرب سبحانه فكما قال : ((إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ))[1] وقوله في الحديث القدسي : ((يا عبادي إنكم لن تبلغوا نفعي فتنفعوني ولن تبلغوا ضري فتضروني ، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))[2] ، فاتضح مما تقدم ضرورة العباد إلى توحيد الله سبحانه بل إن حاجتهم إلى ربهم في توحيدهم إياه كحاجتهم إليه في خلقه لهم ورزقه إياهم بل أعظم ، وليعلم أن حاجة العباد إلى أن يوحدوا الله لا نظير لها فتقاس عليه وأن العبد كلما كان أتم توحيداً لله كان أقرب إليه وأعز له وأعظم لقدره ، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله ، أما المخلوق فكما قيل : احتج إلى من شئت تكن أسيره ، واستغن عمن شئت تكن نظيره ، وأحسن إلى من شئت تكن أميره . ((فالرب سبحانه :

(١) الإسراء ٧ .
(٢) مسلم ٤ / ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧ .

أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه وأفقر ما تكون إليه ، والخلق أهون ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم ، لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم ؟! فإنهم لا يقدرون عليها ولا يريدون من جهة أنفسهم فلا علم ولا قدرة ولا إرادة ، والرب يعلم مصالحك ويقدر عليها ويريدها رحمة منه وفضلاً وذلك صفته من جهة نفسه لا شيء آخر جعله مريداً راحماً ، بل رحمته من لوازم نفسه فإنه كتب على نفسه الرحمة ، ورحمته وسعت كل شيء ، والخلق كلهم محتاجون لا يفعلون شيئاً إلا لحاجتهم ومصلحتهم ، وهذا هو الواجب عليهم والحكمة ، ولا ينبغي لهم إلا ذلك ، لكن السعيد منهم هو الذي يعمل لمصلحته التي هي مصلحة لا لما يظنه مصلحته وليست كذلك))[1] .

ومصلحته التي هي مصلحته هي التوحيد وإخلاص الوجه لله فعليه أن يهتم به علماً وعملاً أعظم الاهتمام .

---

(١) الفتاوى ١ / ٣٩ – ٤٠ .

المبحث الثالث

شدة حاجة المسلمين اليوم لدراسة التوحيد

المسلمون اليوم أشد ما يكونون حاجة إلى دراسة التوحيد لتحقيق صحة فهمه واستقامة السلوك عليه ، فإن الجهل بمفهوم التوحيد يضرب أطنابه في واقع المسلمين اليوم حتى أظل على انحرافات عظيمة تفارق التوحيد وتقدح في أصله وتقطع الصلة بين التوحيد وبين تطبيق المسلمين له ، وقد حلت بالمسلمين مشكلات عمتهم تطال قاصيهم ودانيهم ، سببها ما قلناه من الجهل بالتوحيد ، ولا حل لها إلا بالعودة إلى التوحيد الصحيح الحق ، والعصر اليوم بجميع أهله في أمس الحاجة إلى دلالته على التوحيد لله وقيادته به لحل معضلاته ، وليس هناك من يؤدي هذه المهمة إلا أهل التوحيد فهم الذين يدعون إليه ويدلون عليه ويحسنون القياد به . فهذه ثلاثة أمور تبرز بها شدة حاجة المسلمين لدراسة التوحيد بل وضرورة حياتهم وجماعتهم وبيضتهم إليه نفصلها في ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : الجهل الواقع بالتوحيد علماً وعملاً :

لقد ركن كثير من عامة المسلمين في نواحي بلاد المسلمين في الانتساب إلى التوحيد إلى الإقرار بربوبية الله وأن يقولوا بألسنتهم ((لا إله إلا الله)) وأن يؤدوا الشعائر الظاهرة من صلاة وصيام وحج ، ثم توجهوا بأخص خصائص العبودية لغير الله ، فشائع فيهم التوجه للصالحين يدعونهم ويستغيثون بهم ويتوسلون بجاههم فيقول أحدهم : يا سيدنا فلاناً ، ومولاي فلاناً خذ بيدي، وكن لي كذا وادع الله لي بكذا ، وأنا في حماك ، وأنا بك وبالله ، وأنا دخيلك ، وينذرون لهم النذور فيقول أحدهم : يا سيدي فلاناً إن رزقني الله كذا أجعل لك كذا ، وإن تحقق كذا أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا وأقدم لك كذا ، ويذبحون لهم في مواسم يجعلونها بأسمائهم من وقت إلى وقت إذا جاء وقت موسم الولي فلاناً ساقوا الذبائح من بقر وغنم إلى ضريحه أو مشهده أو قبته يذبحونها له عنده ، ويعكفون حول قبور الصالحين ويبيتون عندها ويقيمون الحفلات والحضرات

وينقلون المرضى إليها يستشفعون بالأضرحة وينادون أصحابها ويستغيثون بهم ، ويتبركون بها وبالإقامة عندها الليلة والليلتين ويشدون الرحال إليها لدفع النذور وإقامة الحفلات ونحو ذلك[1] .

وهذا كله من صريح الشرك الناقض لأصل التوحيد ، وإن لم يكن شركاً فليس في الدنيا شرك ولا معنى للتوحيد يُعرف به !! وهم يعضدون هذه الأفعال الشركية بشرك علمي قبيح فيقولون ((نحن إنما نعتقد في الصالحين الأخيار أن الله جعل لهم النفع والضر في هذه الدار وتلك الدار[2] فهم يعطون أو يمنعون وبأيديهم مفاتح غيبه ، وتحت قبضتهم خزائن فضله ، ينزلون الأمطار متى شاءوا ويعافون من أحبوا ويبتلون من أبغضوا ، ويهبون لمن أرادوا ذكوراً أو إناثاً أو يزوجونهم ذكراناً وإناثاً ويجعلون من غضبوا عليه

(١) انظر رسالة الشرك ومظاهره لمبارك الميلي وعقيدة المؤمن للجزائري ففيهما شواهد كثيرة عرضت لما عليه الناس في البلاد الإسلامية من مثل هذه الأفعال .

(٢) أي في حال حياتهم في الدنيا وبعد موتهم في قبورهم .

عقيماً))[1] ، ويحلف أحدهم بالله العظيم مائة يمين كاذباً عالماً وتأخذه الرعدة وأشد الخوف والهلع من الحلف بسيده فلاناً على كذبة فلا يحلف به إلا صادقاً باراً بيمينه، وإذا انقطعوا في المغاور أو ماج بهم البحر أو حل بهم ضر نادوا : يا سيدي فلاناً أنقذنا أو أدركنا أو أغثنا أو ادفع عنا .

وكل هذا هو صريح الشرك الأكبر المضاد للتوحيد ، وهو الذي بعثت الرسل لردع أممهم عنه ، إذ كان هو حال أهل الجاهلية الجهلاء ، بل إن حال هؤلاء المنتسبين إلى الإسلام والتوحيد أردى ، فإنهم لا يخلصون العبادة لله بحالٍ أبداً لا في رخاءٍ ولا شدة ، أما أهل الجاهلية فكانوا كما شهد الله لهم يخلصون العبادة لله وحده إخلاصاً تاماً في حال الشدة فلا يتوجهون إلا إليه قال الله : ((فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ))[2] وقال

(١) الشرك ومظاهره ص ١٠٧

(٢) العنكبوت ٦٥ .

سبحانه : ((حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم
بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ
ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ
ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ
يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ))[1] .

ومع كون حال هؤلاء المنتسبين إلى التوحيد على حال أهل الجاهلية سواءً بسواء بل وأسوأ إلا أنهم يتبرؤون بألسنتهم من الشرك وأهله ، ويدعون التوحيد جازمين جزماً عنيداً ، ويزعمون أنهم لم يعبدوا إلا الله ، ولم يتخذوا معه آلهة كأولئك المشركين ، فإنهم يقولون لا إله إلا الله وأولئك لا يقولونها ، وأولئك يتعقدون في الجمادات ويتخذون الأصنام ونحن لا نتوجه إلى صنم

(١) يونس ٢٢.

ولم نتخذ أصناماً ، ونحن نوحد الله في خلقه وإيجاده وأولئك يجعلون غير الله يماثله في الخلق والإيجاد ، فهؤلاء إنما أغرقهم في الشرك جهلهم بحقيقة التوحيد ومعناه فهم أحوج ما يكونون لدراسة التوحيد والعلم بحقيقته ، أحوج ما يكونون لأن يعلموا أن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة وأن إفراده بالربوبية ليس هو التوحيد الذي أرسل الله رسله به ولم يقبله من المشركين حتى يضموا إليه لازمه من إفراده بالعبادة ، فهو غير كاف في حصول الإسلام وتحقق التوحيد ، وهم أحوج ما يكونون إلى العلم بأن قول لا إله إلا لله باللسان ليس هو كل القول المطلوب من العبد ، فإن القول المطلوب من العبد هو قول اللسان والقلب والجوارح ، وهكذا القول إذا أطلق فإن المراد به قول القلب واللسان والجوارح فإذا أريد قول اللسان فقط قيد ولم يطلق كما قال الله :

((يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ))[1] فلما كان قولهم قول لسانٍ فقط قيده به ونفى عنه ما يدخل فيه لو أطلق ، وأن يعلموا أن لـ ((لا إله إلا الله)) حقوقاً واجبة مشروطة لصحتها ، مقررة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا تقبل إلا بها وليس لقول ((لا إله إلا الله)) معنى بدونها ، وأن يعلموا أنه لهذا أبى المشركون أن يقولوا ((لا إله إلا الله)) لأنهم علموا أن قولها ينقض عليهم ما هم فيه ويوجب في رقابهم البراءة منه والإقلاع عنه والتوجه بأجمع قلوبهم وأركانهم إلى الله وحده والخلوص من الشرك ، وهم أحوج ما يكونون لأن يعلموا أنه لا فرق بين حجر ولا شجر ولا بشر في وقوع الشرك بصرف العبادة إليه من دون الله ، فالجهة المستحقة للعبادة هي الله وحده بلا جنس شركة مع غيره قليلة كانت أو كثيرة ، فالعبادة حقه لا يستحقها إلا هو ،

(١) الفتح ١١ .

ويتساوى كل شيء غيره في عدم استحقاق العبادة أو شيء منها وإن تفاوتت أجناسه وأنواعه وصفاته ، وأن يعلموا أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الأحجار والأشجار والجن والإنس والملائكة والشمس والقمر فلم يصحح الله ورسوله عبادة نوع دون نوع ، وهم أحوج ما يكونون لأن يعلموا أنه لا فرق بين العبادات في وجوب إخلاصها لله فلا تصرف لغيره فكما أنه لا تكون الصلاة إلا إليه ولا يكون الصيام إلا له ولا يكون الحج إلا له فكذلك لا يكون الدعاء إلا له ولا الذبح إلا له ولا النذر إلا له ، وأن يعلموا أن أهل الجاهلية كانوا يؤدون من الشعائر الظاهرة ما يخلصونه لله ، فقد كانوا يؤدون الحج لله ، يشدون له الرحال ويؤدون مناسكه التي بقيت من شرعة إبراهيم عليه السلام لله ، ويعظمون البيت لله ، ومع هذا لم يقبل الله منهم ذلك مع شركهم به في العبادات الباقيات ، بل وأرسل إليهم

الرسول ، وأنزل فيهم كلامه يعلن براءته منهم ويسجل عليهم اسم الشرك ووصفه وجنسه .

والذين يعتقدون التوحيد على الوجه الذي وصفنا وبينا الحاجة معه إلى دراسة التوحيد وتصحيح العلم به فريقان ، فريق متدين بذلك يسلكه ويؤديه ،وفريق يعتقده ويظنه هو التوحيد والديانة ولكنه معرض عنه يأنف منه يراه طقوساً بالية تليق بالعوام والبسطاء ولا تليق به ، وهؤلاء هم الموسومون بالمثقفين ، وهؤلاء لما كانت نظرتهم إلى الأمر على هذا النحو ألحقوا حتى الفرائض الظاهرة بالترك ، فهم لا يصلون ولا يصومون ملحقين الصلاة والصوم بالأعمال الشركية التي يؤديها الناس جاعلين الباب واحداً فالجميع طقوس دينية يقبل عليها العامة والبسطاء ، وهؤلاء في حاجة أيضاً إلى معرفة التوحيد ودراسته لتصحيح علمهم وعملهم .

وإذا تركت هذا الجانب المظلم من الجهل المطبق بالتوحيد ، والتفتَّ إلى ما عليه المسلمون في تطبيقهم

للتوحيد في سلوكهم العام ، ظهرت لك جوانب عديدة يبدو فيها الجهل بمفهوم التوحيد بيناً ظاهراً يعلن الحاجة الماسة لدراسة التوحيد ، يبدو لك التطير ضارباً أوتاده يخيم على سلوك الناس ، فهذا ينسب ضيق رزق يومه لتصبحه بكذا وكذا ، والآخر ينسب سعة رزق يومه لتصبحه بكذا وكذا ، وهذا يمضيه في شأنه رؤيته لكذا ، والآخر يرده عن شأنه رؤيته لكذا ، وهذا يتفاءل باللون الفلاني والعدد الفلاني واليوم الفلاني والشهر الفلاني ، والآخر يتشاءم من اللون الفلاني والعدد الفلاني واليوم الفلاني والشهر الفلاني ، ويبدو لك التعلق بالتمائم والأحراز والاعتقاد في القلائد والأساور الخواتم على أشكالها المعينة وألونها المعينة ومواضع تقلدها ونحو ذلك من التفاصيل المدعاة لإشاعة التعلق بهذه العقائد واصطناع الهيبة لها .

ويبدو لك نسبة الأحداث إلى النجوم والطوالع والأبراج وقراءة المستقبل والمتوقعات عليها ، ويبدو لك الإقبال

على السحرة والمشعوذين والتطبب بطبهم واللجوء إلى تدابيرهم لصيانة من مكروه أو دفعه أو طلبه لخصم أو نحو ذلك .

كل ذلك والنبي ﷺ يقول ((الطيرة شرك))(١)

ويقول ((إن الرقى والتمائم والتولة شرك)) (٢)

ويقول ((من تعلق شيئاً وكل إليه)) (٣)

ويقول ((من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد))(٤)

ومعلوم أن السحر كفر كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وروى ﷺ عن ربه أنه قال ((من قال مطرنا

(١) أخرجه أبو داود ٤ / ١٧ رقم ٣٩١٠ ، وابن ماجة ٢ / ١١٧٠ رقم ٣٥٣٨ ، والتمذي ٤ / ١٣٨ رقم ١٦١٤ وأحمد ٦ / ٢١٣ رقم ٣٦٨٧ .

(٢) أخرجه أبو داود ٤ / ٩ رقم ٣٨٨٣ ، وابن ماجة ٢ / ١١٦٧ رقم ٣٥٣١ ، واحمد ٦ / ١١٠ رقم ٣٦١٥ والحاكم ٢ / ٢١٦ ، ٢١٧ و ٤/ ٤١٧ .

(٣) أخرجه الترمذي ٤ / ٣٥٢ رقم ٢٠٧٢ وأحمد ٣١/ ٧٨ رقم ١٨٧٨١ والحاكم ٤/ ٢١٦ .

(٤) أخرجه أبو داود ٤/ ١٦ رقم ٣٩٠٥ ، وابن ماجة ٢/ ١٢٢٨ رقم ٣٧٢٦ ، وأحمد ٣/ ٤٥٤ رقم ٢٠٠٠ و ٥/ ٤١ رقم ٢٨٤٠.

بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب))[1] ويقول ﷺ ((من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد))[2] ، والتفت إلى جانب آخر في سلوك الناس مما يعلن بوجوب دراسة التوحيد وإشاعة تعلمه وتعليمه للجهل الحاصل به ، وهو الجهل الواقع في التوكل على الله الذي هو الاستعانة التي جعلها الله قسيمة التعبد في قوله : ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)) وكما يقول ابن القيم ((فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده ، بل حقيقة التوكل : توحيد القلب ، فما دامت فيه علائق الشرك فتوكله معلول مدخول ، وعلى قدر تجريد التوحيد تكون صحة التوكل ، فإن العبد متى التفت إلى غير الله أخذ ذلك الالتفات شعبة من شعب قلبه ، فنقص من توكله على

(١) متفق عليه ، البخاري مع الفتح ٢/ ٣٣٣ رقم ٨٤٦ ، ومسلم ١/ ٨٣ رقم ٧١ .
(٢) أخرجه أحمد ١٥/ ٣٣١ رقم ٩٥٣٦ ، والحاكم ١/ ٨ .

الله بقدر ذهاب تلك الشعبة)) [(١)] ، وفي سلوك كثير من الناس جهل ظاهر بمقتضى توحيد الله في التوكل عليه سبحانه ، فمن الناس من يتعلق قلبه بالأسباب ، ويستفرغ لها توجهه ، ويقيم عليها مقاصده ، حتى إذا حصل على مطلوبه أحال ذلك إلى الأسباب ، وإذا لم يحصل على المطلوب تسخّط من قدر الله أو أحال ذلك إلى الحظ والبخت ، وهو في هذا كله مبتدئه ومنتهاه غافل عن الله وقدرته سبحانه وكفايته وقيوميته وانتهاء الأمور إلى علمه وصدورها عن مشيئته وقدرته منصرف عن التعبد له والتوجه إليه سبحانه ، فهذا متوكل على غير الله ، ومن الناس من يتبع هواه وإخلاد نفسه إلى البطالة والكسل ، ويجمع قلبه ويستفرغ توجهه إلى حصول مطلوبه بلا سعي ولا سبب فيفرط في أمر الله له بالسعي والأخذ بالأسباب ويجعل عجزه وتفريطه توكلاً

---

(١) مدارج السالكين ٢ / ١٢٠ .

فإذا حصل مقصوده اغتر بعجزه وتفريطه فيما أمر به وظنه توحيداً ، وإذا لم يحصل مقصوده تسخط ، وربما وصل به تسخطه إلى الكفر بالله والعياذ بالله وقال : ها أنا توكلت عليه ولم يحصل لي شيء . وكلا الصنفين جاهل بحقيقة التوحيد ، منقطع عنه ، أما الأول فلأنه توجه برجائه وقصده إلى غير الله إما إلى علم أو مال أو شخص أو جهة ، وأما الثاني فلأنه ترك ما أمره الله به ولم يخضع لشرعه ويتعبده بمراداته .

وجميع هذه المظاهر الشائعة في سلوك المسلمين الدالة على انفصامٍ في سلوكهم عن معنى التوحيد دالة على شدة حاجتهم إلى دراسة التوحيد وأهمية ذلك .

المطلب الثاني : المشكلات العامة الحالة بالمسلمين :

مرجع هذا المطلب والمطلب الذي يليه قول الله عز وجل: ((ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ

لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ))[1] فإن الله علق الأمن والاهتداء بالتوحيد الذي لم يختلط بالشرك الناقض لأصله أو المعاصي الناقضة لكماله ، فمن كان منه الأول وهو الشرك الناقض لأصل التوحيد فلا أمن له ولا اهتداء ، ومن سلم توحيده من الشرك فله أصل الأمن والاهتداء ثم يكملان له ما كمل توحيده وينقص منهما ما ينقص من توحيده ، والأمن والاهتداء لفظان عامان تندرج فيهما معانٍ عدة :

فمراد بهما الأمن في الدنيا وفي الآخرة والاهتداء في الدنيا وفي الآخرة ، ومراد بهما الأمن للجماعة وللأفراد والاهتداء للجماعة وللأفراد ، والأمن يكون في النفس والمال والعرض والعقل والدين في الدنيا فأهل التوحيد آمنة نفوسهم مطمئنة ساكنة إلى ربها واثقة به ، آمنة أرزاقهم طيبة هانئة مريئة لا يذوقون لباس الجوع ، آمنة

(١) الأنعام ٨٢ .

أعراضهم وعقولهم بحفظ الله لها بشرائعه ، آمن دينهم فهو من عند ربهم وفي طاعته وعلى الصراط المستقيم آمنون به من عذاب الله وعقوباته ، وفي الجملة فهم آمنون بحياة طيبة يتحقق بها وعد الله الذي وعدهم إياه في قوله : ((مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً))[1] آمنون مما توعد الله به في قوله : ((وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا))[2] وهم آمنون في الآخرة لنجاتهم من عذاب الله وتحقق تمام وعد الله في قوله في تمام آية النحل المذكورة : ((وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ))[3] آمنون مما توعد الله به في تمام آية طه

(١) النحل ٩٧.

(٢) طه ١٢٤ .

(٣) وكما قال سبحانه وتعالى : «فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ» سبأ ٣٧ .

المذكورة :((وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ)) والاهتداء في الدنيا لأهل التوحيد يهديهم الله صراطه المستقيم ويصور هذا الاهتداء كأحسن ما يكون التصوير الحديث المتقدم ذكره في هذا البحث ((لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها)) ، والاهتداء لهم في الآخرة يهديهم الله إلى غرفاتهم في الجنة وإلى ما أعده لهم فيها من صنوف النعيم ، وأمن الأفراد أمن الجماعة إذ بصلاح الأفراد يصلح المجموع . ومقصود هذا المطلب بيان حاجة جماعة المسلمين إلى التوحيد لأنهم أحوج ما يكونون اليوم إلى الأمن ، أن تأمن جماعتهم مما هو حال بهم من الضعف والعجز عن مقاومة العدو وتسلط الكفار عليهم بالقتل والجراح واحتلال ديارهم والتسلط على بعض مقدساتهم وإلحاق أنواع الإيذاء بهم ، هذا حل بهم من خارجهم وهم أيضاً أحوج ما يكونون إلى

أن تأمن جماعتهم من الاختلاف والفرقة والتنافر والتباغض الواقع بينهم ، وهذا حل بهم من داخلهم ، والأمن من هذه المشكلات العامة لا يكون إلا بالتسليم لله بتوحيد خالص لا ظلم يتلبس به فبهذا يأمنون من تسلط العدو ويدرؤون تعديه عليهم لأنهم به ينالون ولاية الله وقد قال سبحانه كما في الحديث القدسي المتقدم ذكره في هذا البحث ((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب)) ، وقد وعد سبحانه من صبر لطاعته واتقاه بتوحيده أن لا يضره كيد أعدائه وإن عظم فقال : ((وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ))[1] وفي كتاب الله مثالٌ يبين مقصودنا[2] ، فإن الله ذكر الحال التي كان عليها النبي ﷺ وصحابته يوم الأحزاب يوم حاصرهم المشركون ، قال

(١) آل عمران ١٢٠ .

(٢) هذا المثال نبه إليه الشيخ محمد الأمين في أضواء في البيان ٣/ ٤١٢ .

سبحانه : ((إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا))[1] وبيَّن سبحانه العلاج الذي قابل به المسلمون هذه المشكلة العظيمة وحلوها به فقال : ((وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا))[2] فالإيمان الكامل والتسليم لله ثقة به وتوكلاً عليه هو حل هذه المشكلة وله كانت النتيجة لهذه المشكلة ما حكاه الله بقوله: ((وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ

(١) الأحزاب ١٠ – ١١ .
(٢)الأحزاب ٢٢ .

وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا))[1]
فالإخلاص لله وتحقيق التوحيد له سبحانه هو حل مشكلات المسلمين المذكورة كما كان علاجاً وسبباً لحل مشكلة المسلمين يوم الأحزاب . وعلى نحو المثال السابق ورد قول الله عز وجل : ((ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ))[2] فكانت قوة توحيدهم وإخلاصهم لله هي التي نفعتهم في هذه المشكلة العظيمة إذ قد جمع الناس لهم وجاءهم من

(١)الأحزاب ٢٥ .
(٢) أل عمران ١٧٣ – ١٧٤ والآيات في غزوة حمراء الأسد لما همت قريش بعد أحد بالرجوع إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين فلما جاء الخبر للنبي ﷺ ندب أصحابه للخروج فخرجوا حتى بلغوا حمراء الأسد وقذف الله الرعب في قلوب المشركين فاستمروا راجعين إلى مكة .

يخوفهم ويثبطهم وكانت النتيجة أن انقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء .

فظهر بهذا أن حل مشكلات المسلمين الحالة بهم اليوم من خارجهم إنما تكون بإقامتهم التوحيد تاماً صحيحاً لله وحده بذلك يكفيهم الله عدوهم ومشكلاتهم وينقلبوا بنعمة من الله وفضل ، وأما مشكلاتهم الحالة بهم من داخلهم فلا حل لها إلا بالاجتماع على توحيد الله وإقامة الوجه له والاعتصام بملته على الوجه الصحيح المستقيم يقول ربنا جل وعلا في ذلك : ((وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ))[1] جاءت هذه الآية في ختام الوصايا العشر التي ابتدأها سبحانه بقوله : ((۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا

(١) الأنعام ١٥٣ .

حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ)) ، وقال سبحانه آمراً عباده المؤمنين : ((وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟))[1] أي بدينه وتوحيده الذي بعث به رسوله . فظهر أن الالتزام بالتوحيد الصحيح المستقيم والاجتماع عليه وإقامة الوجه لله والتسليم له سبحانه هو العلاج الناجع لكل المشكلات التي يعانيها المسلمون اليوم ، فبإتمامهم التوحيد لله وتحقيقهم له على الوجه المستقيم ينالون تمام ولاية الله وينقلبون بأمن واهتداء يسلمون بهما من كل مشكلة ، فحاجتهم إلى التوحيد عظيمة فليدرسوه ويشتغلوا في تعلمه وتعليمه .

المطلب الثالث : حاجة العصر إلى التزام المسلمين بالتوحيد الحق علماً وعملاً :

يشهد العصر تقدماً عظيماً في التقنيات المادية والمخترعات الصناعية حتى غدا العالم بسبب ذلك

(١) آل عمران ١٠٣ .

كالقرية الواحدة الصغيرة التي يعرف أهلها بعضهم بعضاً لسهولة التواصل بينهم ويعرف بعضهم أحوال بعض وسائر أخباره وشأنه، لا يخفى في هذه القرية شيء، فدول العالم أصبحت كالبيوت في هذه القرية ، وشعوبها كالأسر والقبائل في هذه البيوت[1]، وكان من شأن هذا أن يوجد بين دول العالم من الأمن والتعاون والتحاب ما يكون بين أهل القرية الواحدة الصغيرة ، ولكن الواقع بخلاف ذلك ، فالضغائن وتوجس الدول بعضها من بعض دفع إلى تنافس لاهث بينها إلى حيازة الأسلحة القاتلة الفتاكة والتسابق إلى اختراع السلاح الأقوى تدميراً والأعلى فعالية والأسرع فتكاً ، وأصبح الأمن هاجساً صعب المنال ،ليس ثمة طمأنينة ولا سكون بل حذر وترقب ، اليد على الزناد ، والنظر شاخص يمنة وشمالاً ، والكل يستعد لحرب عامة تدمر

(١) انظر الوحي المحمدي ١٩.

في أيام بل ساعات ، هذا حال الدول والجماعات ، أما الأفراد فالحال ذات الحال ، فإن المخترعات التي تيسرت للفرد لم تبث في نفسه أمناً ولم تلبس قلبه سعادة بل أغرته بالإسراف في الرذائل والجرأة على الجرائم والافتتان بالشهوات حتى ألف قطع الوشائج الإنسانية ونقض المواثيق الروحية ، فغرق في القلق والفراغ الروحي حتى وجد الأمن في أن ينتحر ، وكم نقلت الأخبار عن نسب عالية مطردة في ارتفاعها لعدد المنتحرين في نواحي العالم . ولا علاج لهذا الواقع المرير إلا بالتوحيد الذي أخبر الله سبحانه أنه علق الأمن والاهتداء عليه وبه – كما تقدم بيانه في المطلب السابق – ولو أن العالم عرف هذه الحقيقة واتضحت له بينة جلية بلا شبهة لاتخذ التوحيد ضالته المنشودة يسعى إليه بكل قواه ، فالعالم في حاجة ماسة إلى دلالته إلى التوحيد وقيادته به وليس ثمة من يؤدي هذه المهمة إلا المسلمين إذ هم أهل التوحيد وهو في عهدتهم ، تحمل ذمتهم مهمة

تبليغه وقيادة الخلق به ، ولكن حال المسلمين على الأمر الذي ذكرنا في المطلب السابق فهم أنفسهم في حاجة إلى فهم صحيح مستقيم للتوحيد وتطبيق صحيح مستقيم له ، بل إن سوء حال المسلمين هو أهم الحجب المائعة من تنبه العالم إلى أن حلول أزماته في التوحيد لله رب العالمين ، وإن سوء حالهم واستحواذ الجهل بحقيقة التوحيد عليهم صار حجة لمخالفيهم في عدم صلاحية دينهم فظهر بهذا شدة حاجة العصر إلى التزام المسلمين بالتوحيد الصحيح المستقيم علماً وعملاً ليمكن منهم نقل خير هذا إلى العالم وحل سائر معضلاته ، وما دام الأمر كذلك فحاجة المسلمين إلى دراسة التوحيد وشدة العناية به تعلماً وتعليماً متأكدة .

فأين يذهب المطالبون بتمييع دراسة التوحيد وأصول الملة وتهميش شأنها وجعلها في حشو المقررات الدراسية ؟!!

وفي خاتمة هذا أنبه إلى أنه قد يعبر البعض عن حاجة العصر إلى التوحيد بحاجته إلى الإسلام ، فأقول : نعم ،

ولكن إلى الإسلام الصرف الذي لا يلتبس بظلم الشرك والبدع المردودة ، لا مجرد الإسلام الذي ضد الكفر فإننا قد بينا أن حال غالب أهله في حاجة إلى فهم الإسلام الصرف وتعلمه ، في حاجة إلى التوحيد الذي هو أصل الإسلام ومعناه ومراده ، والذي هو الحجة على من عمل بشرائع الإسلام وقارف نواقضه ، كما أنه الحجة على من فهمه ولم يعمل بشرائع الإسلام ، فلا إسلام بلا توحيد ، والحمد لله وحده لا شريك له .

وصلى الله وسلم على من لا نبي بعده .

وكتب /أ . د. محمد بن عبد الرحمن أبو سيف الجهني
الأستاذ بقسم العقيدة في الجامعة الإسلامية

الفهرس